صورة الإسلام في العصور الوسطى عند الأوروبيين وتأثيرها في الكوميديا الإلهية

أ. مجاجي علجية
أستاذة مكلفة بالدروس ــ قسم الترجمة
كلية الآداب واللغات ــ جامعة الجزائر

كان دانتي وأهل عصره على اعتقاد بأن لكل إنسان فترة محدودة من الحياة على الأرض تعقبها فترة أخرى غير محدودة من الحياة بعد الموت. ولو أن إنسانا ما كان مرضيا عنه عند ربّه لحظة موته، فإن روحه تسكن في السموات منعمة مع الرّب. بعد أن تعرج روحه على المطهر لفترة انتقالية محددة. وبالمثل لو أن إنسانا ما كان غير مرضي عنه عند ربّه لحظة الموت، فإن روحه تسكن الجحيم خالدة فيها أبدا، محرومة من رؤية الرّب. هذا هو الاعتقاد الذي كان شائعا في عصر دانتي، وهو الذي ألهمه كتابة "الكوميديا الإلهية"، وهي ملحمة من نسج رؤاه الخاصة، يصوّر الآخرة من خلالها، فهي رحلة عبر عوالمها الثلاثة: الجحيم، المطهر والفردوس، متناولا بالوصف أحوال من التقى بهم في هذه العوالم سواء من كان خالدا منهم من عذاب جهنم أو من كان يقضي بالمطهر فترة الانتقال تطهيرا لروحه، أو من كان يتمتع في الفردوس بنعيم أبدي.

وعليه، فالمعنى المباشر لهذا العمل هو وضع الأرواح بعد الموت، وفضلا عن هذا المعنى، هنالك المعنى المجازي ألا وهو أن الإنسان يُجزى خيرا أو ينال عقابا بقدر ما يوجه إرادته الحرة إلى الخير أو إلى الشر، مضافا إلى هذا فإن دانتي بيّن في خطبة الإهداء التي يرفعها إلى أخر إنسان شمله برعايته لينجز هذه الملحمة، يقول أن الهدف منه ...هو انتشال أولئك الذين يعيشون في هذه الحياة من حالة الشقاء والأخذ بيدهم للعيش في حالة من السعادة والنعيم لذا فالكوميديا الإلهية تصنف على أنها علم تعليمي أخلاقي المقصود منها أن تكون أداة ووسيلة لإحداث تأثير ما. ولما كان دانتي يكتب للإنسان العادي فقد كتب ملحمته باللغة الإيطالية – لغة العامة– بدلا من اللغة اللاتينية –لغة خاصة بالمتعلمين– وعمل على إيصال رسالته للقارئ في أوضح صورة ممكنة. وعلى أن تكون قصيدته رسالة فكرية مؤثرة يعبّر من خلالها عما يراه. ولم يعمد إلى تسمية الأرواح التي تمثل الأقدار الأبدية بأسماء مجردة، وإنما اختار لها أسماء عادية مألوفة لنساء كانوا أم رجالا وهم أناس معروفون تمام المعرفة لأسلافه ومعاصريه على السواء حتى يتعرف عليها القارئ في الحال.

وتنقسم الكوميديا الإلهية إلى أجزاء ثلاثة: الجحيم والطهر والفردوس. وقبل الجحيم مباشرة هنالك مكان يدعى "الشفا" (Limbo) مخصص لأرواح الأطفال الذين يتوفاهم الله قبل أن يعمدوا، وأرواح الوثنيين الفاضلين (ويقصد دانتي بالوثنيين الذين عاشوا قبل ظهور المسيحية). في هذا المكان نلتقي بالمسلمين الثلاثة الأوائل: ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبي. أما الرسولﷺ والإمام علي – رضي الله عنه – فقد وضعهما دانتي في قاع الجحيم وجحيم دانتي عبارة عن حفرة هائلة قمعية الشكل، تنقسم إلى تسع مناطق يتناقص محيط كل واحدة منها كلما اقتربت من القاع. وقد خصصت كل منطقة منها لإحدى الخطايا. ويتم ترتيب هذه الخطايا على قدر ما تحمله من شرور، فأخفها هو أقربها إلى قمة القمع وأفحشها هو أقربها إلى قاعدته وهذه الخطايا تصنف بدورها وفقا للتصنيف المسيحي للكبائر الثلاث: الانغماس في الشهوات، والعنف والغش، ويتم تنظيم أمور العقاب وفقا لقانون الجزاء من جنس العمل حتى تتناسب الأمور بطبيعة الخطيئة، ولذا يعاقب أصحاب الشقاق والفرقة. ويضع دانتي في مصافهم النبي ﷺ والإمام علي – كرّم الله وجهه– بتصنيفهم في مجموعة الدجالين وكذلك نجد في الصنف الأول أرواح المذنبين العظماء من شعراء وفلاسفة وحكماء ممن لا يجوز إدخالهم الجنة لعدم إيمانهم بالمسيحية، لكنهم مع هذا لا يستحقون الجحيم الفعلي حسب مفهوم دانتي. وحالهم في هذا المكان هو العيش في رغبة دائمة للحق وفي عالم مليء بالحسرة، لعلمهم أنهم لن يستطيعوا إتباع رغبتهم في المعرفة المطلقة، ألا وهي معرفة الرب، على الرغم مما كانوا عليه من حكمة دنيوية عميقة، وبين هذه الأرواح نجد ابن رشد وابن سينا وصلاح الدين الأيوبي أولئك الذين استوجب دانتي استبعادهم من ملكوت السموات "بجهلهم بالمسيحية"، وإن كانوا قد عاشوا حياة نبيلة زاخرة بالإنجازات العظيمة، ونعني بهذا أن دانتي قد استقى "أمثلته" هذه عن صورة كانت معدة سلفا عن الإسلام ومسلمات بها من قبل أسلافه ومعاصريه لذا، لا نستطيع أن نعالج تصوير دانتي للشخصيات الإسلامية قبل أن نتوفر على دراسة هذا الإطار دراسة مفصلة وتبيان الكيفية التي نشأ بها.

حاول علماء العصور الوسطى، الذين كانوا تواقين للسيطرة على معتقدات الناس وسلوكهم العام أن يمنحوا نظرياتهم قوة القانون وكان اللاهوت هو قمة هذا النظام النظري وكذلك كان الإسلام وتاريخ رسوله مغلفين بمفاهيم أوروبية لا يستطيع العرب والمسلمون التعرف عليها. وقد كان لاهوت الحروب الصليبية هو لاهوت العلاقات المسيحية بالإسلام.

وما كان اللاهوت والتاريخ –كلاهما– سوى دعاية تدعم العدوان، في حين كان القانون الكنسي يبين الحدود التي كان على الحرب أن تنشب بمقتضاها. وكان أكثر جوانب هذا القانون اتصالا بموضوعنا هو ما يتعلق بالمقاطعة، وبعدم التسامح. وكان القصد العام لهذا هو فصل المسيحيين الأوروبيين عن "العدو" الخارجي غير المسيحي. أما شريعة الإسلام –دين التسامح– فتحرم الأخذ بهذه المعاملة بالنسبة للجماعات المسيحية الأهلية التي تعيش بين المسلمين في الشرق وتبجيل المسلمين للمسيح أمر يتباين تباينا صارخا مع الافتراءات التي انهالت على

الرسول ﷺ من جانب المسيحيين. ذلك أن الإسلام ينظر إلى المسيحيين على أنهم أهل كتاب في حين أن المسيحيين لم يترددوا بتسمية الإسلام بالدين الزائف وهم بين الإنكار والتفنيد. وكان جيش الصليبيين في الغرب بمثابة رهط من الحجاج وقد شد الرحال لتحرير الأراضي المقدسة وتدمير "العدو المسلم" ومختلف الأعمال الوحشية التي كان يمارسها الصليبيون ضد المسلمين. بين أنها لم تكن في الأصل والحقيقة سوى ذريعة قُصد بها تخفيف عبء حرب الإقطاع عن كاهل الأوروبيين. كانت هذه الحروب خدمة دينية تمت على حساب شعوب أخرى.

لقد اعتبر العرب والمسلمون قوما يعيشون خارج نطاق العالم المتحضر، أي لا يحق لهم أن يعاملوا معاملة إنسانية ويبدو أن هذه المواقف قد قامت على نموذج التقليد القديم الذي سارت عليه حروب الرومانيين واليونانيين القدماء ضد الفرس والبارثيين (Parthians).

ولقد عُزز "نقد" الإسلام هذا بأسطورة تاريخية قائمة على تحليل دفاعي أدرك مبدعوه أن الإسلام قد قام على أساس الديانات الإبراهيمية الأقدم ولذا كان المقصود به قبل كل شيء أن الإسلام يحب المسيحية. وانطلاقا من إحساسهم أن الإسلام قد قام لزعزعة دعائم المسيحية من أساسها، فقد بدأ أغلب المجادلين من الفكرة التي تزعم أن الإسلام كان تهديدا فعالا للمسيحية بالسعي إلى إثبات أن الإسلام "نبوة زائفة" حسب لغة العصر. وقد فعلوا ذلك بوسيلة لا تزيد فعاليتها عن مجرد التأكيد، نقطة بعد أخرى، على أن الإسلام لا يساير العقيدة المسيحية، لذا فإن هذه التهجمات التي لا تراعي ضميرا، كانت في عنف الحروب الصليبية ذاتها. أن أنها كانت "عدوانية الطابع" "دفاعية الهدف".

وكانت الافتراءات على الرسول ﷺ والمسلمين في العادة افتراءات سفيهة بذيئة وغير مسئولة للغاية وقد ترددت كثيرا جدا في جميع المؤلفات[1].وأغرب هذه الأفكار نسجها الخيال المسيحي الذي نسجته ونقلته الأسطورة الشعبية تلك التي تزعم بأن الرسول ﷺ لم يكن مؤسس ديانة جديدة وإنما هو مسيحي مرتد فالخرافة التي تقول بأن محمد ﷺ كردينال روماني أسس مذهبا جديدا منشقا كانت من عمل النحاة الفرنسيين في القرنين 11 و12 الميلاديين وقد انتشرت هذه الخرافة على نحو خاص في شمال إيطاليا على عهد داسي[2].

ومن هذه الخرافة وحدها نستطيع أن نتبين الأسطورة التي ابتدعها الغرب عن أن الإسلام كان أداة للانتقام من المسيحية ولم يكن دينا في حد ذاته من هذا المنطلق كان من السهل إشاعة وتبرير الفكرة التي تزعم أن الإسلام كان نوعا من الخروج على المسيحية. وبالإضافة إلى هذه الأسطورة فإن استخدام أو سوء استخدام عدد كبير من المصادر العربية لترسيخ هذه القصص المسيحية كان لعبة العلماء، لعبة ذات غرض عملي ولو أن الغرض الظاهري كان تبشيريا. وانتهت حالات سبّ الرسول ﷺ في بلاد إسلامية بطرد الإرساليات التبشيرية أو بمقتل أفرادها. وكان أول أوروبي يهتم اهتماما نشطا باستخدام المصادر العربية لأغراض هجومية على الإسلام هو "بيتر" الفرنسي الملقب بـــ "المبجل"، راهب دير كلوني[3].

ذهب بيتر في عام 1141 إلى أديرة إسبانيا بحثا عن قسس لاتينيين يكونون على دراية باللغة العربية واكتشف الإنجليزي Robert of Keaton, Herman the Dalmation وكان كلاهما من دارسي علم التنجيم وخبيرين في اللغة العربية. لقد أغراهما بـــ "الرجاء والمال الوفير بترك دراستهما في سبيل خير أجّل ألا وهو النضال ضد هرطقة محمد ﷺ الوضيعة (المصدر نفسه) بالعمل على تزويد اللاتينيين الجهلة بمعلومات وافية عن هذه الهرطقة" كي يستخدموها في العمل التبشيري. ومن الجلّي أن بيتر المبجل قد شعر بأن هذا الموضوع ملح، لذا فقد أقنع نفسه بأن معرفة القرآن والإلمام بشيء من الفقه الإسلامي قد أصبح أمرا ملزما للمسيحيين حتى يهاجموا الإسلام على نحو فعّال.

ومن الواضح أن إظهار الإسلام في كتابتهما بمظاهر الدين المتعصب كان استرضاء لسيدهم ورغبة في التأمين لأنفسهم موردا ماليا مستمرا. ولعله كان تعبيرا عن إحساس بالإحباط لاضطرارهم قضاء جل وقتهم في ترجمة أصول العقيدة الإسلامية على حساب ما كانوا به أكثر شغفا ألا وهو دراسة علوم العرب الفلكية والرياضية، وقد أكد R. of Keaton تماما أنه لم يكن متحمسا على الإطلاق للتضحية بمشاغله العلمية ووضع معرفته عن كنوز العرب تحت تصرّف رجال الجدل المسيحي. وبهذا المعنى يبدو R. of Keaton، رجلا ذا عقل لم يتعب إلا عند الطلب ومقابل ثمن عال.

ومن الأعمال التي تمت ترجمتها بتكليف من بيتر بعض الرسائل التي تزعم بأنها سجل معاصر لجدل تم في القرن التاسع حول قيم الإسلام والمسيحية، كما عثر في مكتبات إسبانيا على بضع نسخ تتناول نسب الرسول، كما وجدت في أقدم سيرة إسلامية كتبها محمد بن إسحق. وكتب أخرى في الأحاديث. وقد ترجم القرآن الكريم في 15 يوليو سنة 1143، أي بداية عام 538م، وهذه الترجمة وغيرها من ترجمات المصادر العربية اتخذت بمثابة الأساس للتهجمات المسيحية على الإسلام. وقد كان يتم إنجاز هذه الترجمات في الغالب على نحو من التهكم والتحريف والتشويه والسخرية من الإسلام ورسوله ﷺ من جانب رجال الجدل المسيحي.

ومن المصادر الإسلامية التي عرفت في القرن 12 الميلادي، نجد أن الرابط الأساسي بين المسيحية والإسلام قد أوحت به قصة "بحيرة" والقصة في حقيقتها تتحدث عن الصبّي محمد ﷺ وهو يرافق قوافل التجارة بين مكة والشام، حيث التقى به راهب مسيحي يدعى بحيرة الذي تنبأ نبوة هذه الفتى في المستقبل، فقد قرأ في الكتب المسيحية عن بعث الرسول ﷺ وتلك هي الكتب الصحيحة التي كانت في حوزة المسيحيين غير الضالين أولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم "أقرب مودة للذين آمنوا". ((ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون...))[4].

ها هو راهب مسيحي، كان شخصية تاريخية في القرن 6 يشهد للإسلام ولرسالته، تلك الرسالة التي حاولت المسيحية الضالة من خلال كنيستها الرسمية، إنكارها. ولقد وصفت

شخصية بحيرة بالطبع، بأنها شخصية راهب مسيحي منشق وذلك في أقدم جدل بيزنطي مثّله تيوفانيس (ت.818م). لقد صُوّر على أنه الوحي "للنبي الزائف" والمتآمر معه على المسيحية وقد تطورت صورته هذه في أذهان المسيحيين بحكم هذه العلاقة التي وصفته بـــ "الراهب المسيحي ملعون الروح".

وسرعان ما انتقلت هذه المواقف وتلك الصورة العامة المشوهة للإسلام ونبيه –على يد العلماء والقساوسة– إلى الأدب الشعبي، الأدب الرومانسي والمغامرة حيث امتصت وأصبحت جزاء لا يتجزأ منه، ثم وجهت لعامة الجماهير[5]. ومن الممكن اعتبار هذه المؤلفات الروائية نوعا من الدعاية التي قصد بها استغلال الرأي العام وطمأنته، لاسيما في ظروف الهزائم المتوالية التي أوقعها بهم المسلمون في الحروب الصليبية، بأنهم سوف ينتصرون على الإسلام في آخر الأمر. ومعم ذلك فإن هذا النوع من الأدب المختلف عن تلك الأعمال الجدالية التي كان الأكاديميون يكتبونها من حيث أنها تحتوي على شيء من الاحترام، وفي بعض الأحيان الاحترام الكبير لقواد المسلمين وذلك في جميع الأشعار تقريبا، ففي أحد الأعمال الشعبية بعنوان "Saladin" نجد أن لدى مؤلفه إحساسا بمعايشة مثل الفروسية الإسلامية. وقد بدا قويا، مستوليا على موضوع القصة برمتها. في هذا السياق نجد أن بعض العرب المسيحيين قد أصبحوا في النظر المسيحي الغربي، مسيحيين لا في نظر المُجادلين المتعصبين، مصدرا أو إطارا للمغامرة والعجائب والإثارة، أكثر من كونه "أرض الأعداء".

ومع أن الغرب المسيحي كان ينظر للإسلام على أنه كيان سلبي، فإن الأمر يختلف بالنسبة للشرق، فقد نظروا إليه وقد اتسع مداه ليشمل مناطق كصقلية وإسبانيا على أنه أرض العجائب التي أضفى عليها الخيال الغربي ألوانا أخرى من السحر، الإعجاز، ولكن –وهذا أهم ما في الأمر– فيما يتعلق بعلوم الفلسفة والعلوم البحتة والطب والتكنولوجيا، كان الغرب مستعد للتعلم من العرب، وفي هذا كانوا ينظرون إلى العلم العربي بإعجاب واحترام[6].

وقد كان لما اكتسبوه من معرفة تأتت لهم عن طريق التوسع في ترجمة الأعمال العربية إلى اللاتينية بدفعة قوية لبزوغ فجر النهضة الأوروبية خلال القرن 12م وقد كان للمعرفة العربية أثرها الملموس في كل نواحي الحياة إبان القرن 13م، وقد كانت بمثابة الحافز القوي مضافا إليها إحياء تراث الرومان واليونان لإعلام رواد النهضة الأوروبية أمثال "Dante" (1321–1365) و"Petrarque" (1304–1374) وقد كانت العلاقات الثقافية بين الإسلام والغرب اللاتينيين أمرا غاية في الاختلاف نظرا لما كان عليه هذا الأخير من تخلف.

ثم إن القرآن كان أرجح من الإنجيل بوصفه كلام الله ذاته، وفيما يخص العقل كان المسلمون يدركون أن أمور الدين تتجاوز العقل، لكنهم كانوا يرون في نفس الوقت أن الدين يجب ألا يناقض العقل، وأنه يجب أن يسمح بالتحليل والمساءلة المنطقية. وبذا توصل المسلمون إلى حجج عقلانية كاسحة ضد المسيحية. في الجانب الآخر كان المسيحيون يؤمنون بالأسرار

الدينية وهو الجانب الذي لم يكن في متناول العقل وحسب، بل ويناقضه في الواقع. لذا، كان بإمكان المسيحيين أن يثيروا حججهم ضد المسيحية. والواقع أن العقيدة المسيحية تؤمن بأنه ليس في وسع العقل البشري الذي يحكمه المنطق أن يدرك حقيقة المسيحية، ذلك أمر يحتاج إلى بركة الله وفتوحه. وإجمالا، فإن الإسلام باعتباره دين الوسط لا التطرف، ينظر إلى غيره من الديانات بما فيها المسيحية على أنها في الأساس نوع من التطرف الإسلامي في عدد من جوانبها.

وهنالك قضية مكملة في العلاقة بين الإسلام والمسيحية، ألا وهي أن المسلمين ينظرون إلى القرآن على أنه حاوٍ لكل ما يحتاج المسلم معرفته عن المسيحية من حيث طبيعتها وأركانها ومن حيث الحكم عليه، لذا فقد رأوا أنه ليس ثم ضرورة للاستزادة من دراسة المسيحية تمثلا بقوله تعالى: ((ما فرطنا في الكتاب من شيء...))[7]، أما المسيحيون من جانبهم، فلم يستطيعوا الرجوع إلى كتابهم المقدس كي يعرفوا شيئا عن الإسلام.

لقد كانوا على جهل مطلق بالإسلام وكان عليهم أن يدرسوه، أما على المستوى الفكري، فكبار المفكرين من أمثال ابن سينا (980–1037م) والغزالي (1058–1111م) فلم يكن ليضارعهما أحد من متكلمي الغرب. وكان على اللاتينيين أن ينتظروا زمنا طويلا حتى يظهر فيهم رجال على مثل هذا الحجم أو رجال قادرون على استيعاب فكر عباقرة من أمثال بن باجة (ت 1138) أو بن رشد (1126–1198).

لقد حاولنا في الملاحظات السابقة أن نحدد تعدد الأسس التي بنيت عليها العلاقات بين الشرق والغرب، بين الإسلام والمسيحية، خلال العصور الوسطى، وهذه الأسس تعد أمرا جوهريا في فهم العلاقات ووجهات النظر المتبادلة بين المسيحية والإسلام خلال تلك العصور، زد على هذا بالنسبة لموضوع دراستنا هذه فإن الإلمام بهذه الأسس أمر لا مفر منه لتحديد الأرضية التي استقى منها دانتي أفكاره عن الإسلام، ورسم من خلالها الشخصيات الإسلامية في الكوميديا الإلهية... وبدون هذه النظرة المستشرقة الشمولية إلى العلاقة والتفاعل بين الإسلام والمسيحية خلال العصور الوسطى، وبدون وجهات نظر متقابلة وجها لوجه، يصعب إن لم يكن يستحيل على أي قارئ أن يفهم تصوير دانتي للشخصيات الإسلامية في الكوميديا الإلهية.

لقد جاءت ترجمة حسن عثمان لقصة Dante على قدر كبير من البراعة ولقد اسقط جزءا من الجحيم خاص بوصف الرسول ﷺ وعلي –كرم الله وجهه–، وقد علّق على هذا الحذف في الهامش الخاص بالأنشودة 28 بقوله: "ولقد حذفت من هذه الأنشودة لأنني وجدتها غير جديرة بالترجمة وقد أخطأ Dante في ذلك خطأ جسيما تأثر فيه بما كان سائدا في عصره بين العامة أو في المؤلفات عن الرسول العظيم، بحيث لم يستطع أهل الغرب وقتئذ تقدير رسالة الإسلام الحقة وفهم حكمته الإلهية"[8].

ويبدو أنه يدعو هذا التصرف إلى الغرابة وانطلاقا من المثل القائل أن "ناقل الكفر ليس بكافر"، فقد ذكرننا أن الغرب كان منشغلا بترجمة الكتب الإسلامية الدينية وكتب الأدب في

العصور الوسطى حتى يقدمه في صورة مشوهة تخدم غاياته الجدلية. وقد لاحظنا فيما سبق أنه قد تمت ترجمة القرآن الكريم في الغرب في عام 1143م بهدف تشويه محتوياته من جانب الجدليين المسيحيين الذين كانوا تواقين لسحق الإسلام وتدمير كل ركن من أركان الدين الجديد.

فإذا كان الغرب قد دأب منذ القرن الثاني عشر على محاربة الإسلام، وإذا كان قد قام بتشويه صورة القرآن الكريم وبثها في أدابه كما يظهر في الكوميديا الإلهية، فلماذا ونحت في القرن 21 نتردد في فضح هذه الآراء دفاعا عن ديننا ؟ لماذا ندن رؤوسنا في الرمال، ولا نعد أنفسنا لمواجهة الحقيقة ونتفحص أبعاد الصور البشعة ؟ خبيثة المرامي التي لفقها علماء الغرب لديننا الحنيف خلال العصور الوسطى. وبدافع عن سعينا للدفاع عن ديننا.

إن طريقة العقاب التي جرى بها تعذيب النبي ﷺ والإمام علي –كرم الله وجهه– ألا وهي التمثيل بجسديهما، هي التصوير الرمزي في نظر Dante للشقاق بذراه هما وأتباعهما في جسد الكنيسة والتي تعد بمثابة جسد المسيح نفسه[9].

كما يطرح هذا الوضع سؤالا محيرا إلى حد ما في أذهان قرائه المسلمين، وهذا السؤال هو: لماذا يضع دانتي الرسول وابن عمه في أعمق أعماق الجحيم، بينما يضع 3 من أكثر أتباعه حماسة في أول دائرة وأخفها مع أفلاطون وأرسطو وسقراط ؟ أي بين هؤلاء الذين لو قدر لهم أن عرفوا المسيحية وأعلنوا إيمانهم بها لما وضعوا مثل هذا الموضع في الكوميديا الإلهية. ولكننا وجدناهم بين الأرواح المنعمة في فردوس دانتي. لماذا تجاهل دانتي حقيقة أن هؤلاء المسلمين الثلاثة كانوا من أعظم أتباع الدعوى الإسلامية، ومن أكبر مناصريها ؟

إن ذلك لغموض عجيب بأن بعضهم في مستوى أعلى من رسولهم، ذلك لأنه بمقتضى حماسهم الديني وحده خاصة لو أخذنا بعين الاعتبار حماس صلاح الدين الأيوبي كقائد عسكري وحماس ابن رشد كفيلسوف لابد وأنهما مدانان مع الرسول ﷺ والتفسير المنطقي الوحيد لتصنيف دانتي لتلك الشخصيات المسلمة مع الأرواح الفاضلة هو أنه تغاضى عمدا عن انتماءاتهم الدينية وفضل اعتبارهم رموزا للحكمة الإنسانية والعبقرية. ومن هذه الناحية فإن دانتي يقدم أسمى آيات التبجيل لتفوق العلوم الإسلامية لأنه لم يجد من بين الأوروبيين من هم في مكانة علماء المسلمين وفضلهم.

وكان لإنتاج ابن سينا الأدبي الهائل أثره العظيم في تفكير الغرب في العصور الوسطى. ومن الممكن أن نذكر من بين كتبه "الشفاء" والذي عرف في أوروبا في العصور الوسطى باسم "Sufficentia": ويعد هذا العمل الضخم شرحا تفصيليا للعلوم الإغريقية وعلى الأخص تلك الرسائل الموجودة في كتابات أرسطو. وكان قصد ابن سينا في كتابته هذا العمل هو شرح فكر أرسطو لكنه هو نفسه –كما يقرر– في مقدمة كتاب "لم يكن لأرسطو" طالبا والكتاب في كثير من مواضيعه يعتبر في الغالب عن آراء ابن سينا الخاصة. وتتضمن أعماله الأخرى: كتاب "النجاة" وكتاب "الإرشادات والتنبيهات" وكتاب "المباحثات" أما الكتاب الذي جعله ذا تأثير واسع في الطب

الأوروبي فهو "القانون في الطب" وقد عرف في صورته الأوروبية باسم "Canon" وتعد هذه الموسوعة الطبية ذروة التصنيف العربي ودائرة معارف طبية بكل معاني الكلمة ويكاد القارئ لكتاب ابن سينا يظن أن ناحية من نواحي الطب الحديث لم تفته...

كذلك، عرف أطباء العرب الأمراض النفسية ووصفوا لها أكثر من علاج وفسروا كثيرا منها في ضوء العامل الجنسي وذلك قبل أن يولد فرويد بمئات السنين[10]. قام Girard de Crémone بترجمة كتاب القانون إلى اللغة اللاتينية في القرن 12م وهذه الترجمة منشورة في العديد من المخطوطات والإقبال على هذا الكتاب أمر يمكن إدراكه من واقع صدوره 16 مرة خلال الثلاثين عاما الأخيرة من القرن 13م، منها 15 ترجمة باللاتينية وترجمة واحدة بالعبرية، ومن واقع إعادة صدوره أكثر من عشرين مرة خلال القرن 16. كما أن التعليقات عليه سواء ما نشر منها مخطوطا أو مطبوعا تعليقات لا حصر لها. وبذا ظل الطب العربي، المصدر الحجة في الغرب حتى السنوات الأخيرة من عصر النهضة الأوروبية. والمقولة التي تتردد كثيرا عن أن الغرب مدين للعرب في اكتشافه لأرسطو فقول يحتاج إلى شيء من التحديد. فقد يكون من الأدق أن نقول بأن الغرب مدين للعرب في اكتشافه للفلسفة الأرسطوطالية، ذلك لأن اهتمام العلماء الأوروبيين بأعمال أرسطو قد زكاه أولا معرفتهم بالفكر الغربي. وقد كان نفوذ ابن رشد في هذا الصدد طاغيا مهيمنا. وكانت أفكاره مستقاة من مثالية المدرسة السكندرية التي قامت بدورها على الفلسفة الأرسطوطالية وعند تقديمه له منحه لقب "المعلق الأكبر". ويعني ضمنيا "الفيلسوف الأكبر" (المصدر السابق) وقد وصلت شهرة أرسطو أوجها خلال القرنين 11 و12 الميلاديين وقد كان ابن رشد هو المسؤول عن ترويج فلسفته ونقل فكره إلى الغرب خلال هذين القرنين وكان ابن رشد يعرف بلقب "المعلق الأكبر" لما أنجزه من تعليقا وشروح لمؤلفات أرسطو. فقد كتب أنواعا ثلاثة من التعليقات: عال ومتوسط ومختصر. ويحاول في هذه التعليقات أن يفسر آراء أرسطو المحققة مستبعدا التزايدات الأفلاطونية الحديثة (Néo-Platonism) وغيرها من التزايدات الأخرى التي وجدت في كتابات المسلمين الأوائل.

وقد ترجم قدر كبير من هذه التعليقات إلى اللاتينية سواء كانت ترجمتها من العربية رأسا أم عن ترجمة عبرية لها. وليس من قبيل المبالغة إن قلنا أن تأثيرها على الفلسفة المسيحية (وأيضا على الفلسفة اليهودية) كان عظيما جدا. وهذا التأثير يرجع في المقام الأول إلى العلم بفكر أرسطو وفهمه كما يتجلى في تعليقات ابن رشد والذي كان من الممكن اكتسابه منها. وسرعان ما تركز الجدل الفكري حول بعض قضايا فلسفة ابن رشد نفسه كآراء منفصلة عن آراء معلمه وأضحت المدرسة الرشدية في أوروبا اللاتينية مدرسة قوية كان لها التأثير الواضح على عصر النهضة بالرغم من معارضة السلطات الكنسية.

ووضع دانتي لابن رشد في الكوميديا الإلهية بين الفلاسفة البارزين كان في الأغلب بسبب التأثير غير العادي الذي مارسه ابن رشد على فكر "Thomas d'Aquin" وهو رجل

دين مسيحي كانت مؤلفاته معروفة تماما لدى دانتي وكان لفلسفته الدينية أثر واضح في الكوميديا الإلهية. وأبرز وجهة نظر يشترك فيها المفكران الكبيران هي مكانتهما كمدافعين عن ذات المثل الأعلى، ألا وهي الموافقة بين الفلسفة والعقيدة وفضلا عن هذا استعمل توماس الأكويني في الدفاع عن هذه الموافقة الكثير من الحجج والبراهين التي سبقه إليها الفيلسوف المسلم وهي مشروحة في كتاب "الفلسفة وفضل المقال في موافقة الحكمة والشريعة" لابن رشد. كما أن الصراع بين الفلسفة والحقيقة المنزلة كما وردت في الإنجيل والقرآن فأمر غير ملحوظ عند كل من توماس الإكويني وابن رشد على التوالي. وإذا كان ثم تضارب ظاهري بين الحقيقة المنزلة والحقيقة الفلسفية، فإن ذلك راجع في اعتقادهما إلى خطأ في الفهم من جانب القارئ لهما. لم يكن المعنى الحرفي البسيط هو المعنى السليم على الدوام لاسيما عندما وصف الله عز وجل بأوصاف بشرية.

وأوجه التشابه بين ابن رشد وتوما الإكويني غاية في التعدد كون ابن رشد أولا، قد خلّف للدارسين المسيحيين شيئا أكثر من مجرد التعليق على أرسطو فكلا المفكرين يستشهدان بآيات من القرآن والإنجيل بعد التدليل بالبراهين الفلسفية على صحة العقيدة، وكلاهما يبدأ بشواهد مشكوك في صحتها أو متناقضة ظاهريا، كما نجد نفس الدليل على وجود الله من خلال الحركة والعناية الإلهية للعالم. نفس الجدل عن أن وحدانية الله من وحدانية العالم. ووجود صلاح الدين في الكوميديا الإلهية بين الأرواح الفاضلة والموصوفة بالشهامة، لا يتم تفسيره إلا من خلال الحروف الصليبية وما ترتب على ذلك من اختمار الأنشطة وتفاعلها بين الشرق والغرب.

وصورة صلاح الدين التي ظهرت في مختلف التصورات الأدبية قد تم رسمها في الأصل بوحي من محاولة استعادة وإنارة الظروف التي كانت موجودة قبلا. وبالتدريج اكتسب القائد الإسلامي الكبير مكانة جليلة مبجلة وأضحى قدوة حسنة وهّاجة، وأبرز ظرف من هذه الظروف هو ذلك التفاهم الذي ساد بين المسلمين والمسيحيين قبيل نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. وهذا التفاهم هو الذي تبدي بقوة في قوانين الفروسية الخاصة بالنظم العسكرية والجهاد كما تبدت في تقنين التسامح الديني. لكن التسامح والنضج من جانب الإسلام تجاه المسيحية قد تمثلا في تسامح وشهامة قادة المسلمين تجاه قادة الصليبيين ولقد كان الرسول ﷺ نفسه مع حماسه وغيرته الدينية غاية في التسامح ومثلا عليه ولقد كان دون ريب غاية في التسامح تجاه اليهودية والنصرانية. والواقع أن هناك عناصر مشتركة بين الأديان السامية الثلاثة على نحو لا يسمح منطقيا بوجود عداء من قبل الدين الجديد ضد الديانتين الأقدم. الأسماء المشرقة والمبجلة لدى المسيحية واليهودية هي أسماء مشرقة ومبجلة لدى النبي. كما أن هنالك أيضا تشابهات عدة في الفكر الديني والرأي والمشاركة الوجدانية. وهذه كلها قواسم مشتركة بين الأديان السامية الثلاثة، تلك التشابهات يقرها الإسلام ويعترف بها. وبلا شك هنالك أجزاء من القرآن تظهر كراهية شديدة للكافرين، لكن المقصود بالكافرين هم عبدة الأصنام والمشركين بالله. وليس

المقصود بهم أولئك الذين آمنوا بوحدانية الله في مختلف أطوارها. لذا، فإننا بعد استبعاد جانب التعصب والقسوة، وهو موجود في جميع الأديان تقريبا، فإننا نجد في قواد الإسلام كما نجد في رسوله أملة لرجال بارزين من حيث استنارة عقولهم وتحرر فكرهم. والإسلام على رغم ما صبته عليه المسيحية من لعنات ازدراء وكراهية، زاخر برجال حكاما كانوا أم رعايا، كانت حياتهم مثلا على الاستقامة والنقاء والورع، وكان من بين هؤلاء الرجال صلاح الدين الأيوبي، الذي اتخذه المسيحيون مثلا على الفروسية، رغم مقاومته الشرسة لحملاتهم الصليبية. وضمن عدالة قاهر الصليبين وكرمه وسماحته، فضائل يضرب بها المثل في وقت كانت فيه حياة الباباوات والكرادلة نموذجا للفضائح في طول العالم المسيحي وعرضه. وفي الكوميديا الإلهية، نرى صلاح الدين في نفس المكانة المميزة لسقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء والأبطال في العصور السابقة على القرون الوسطى. وظهور صلاح الدين في الكوميديا الإلهية يوضح لنا في قوة قدر ما تسرب للعقل الإيطالي من أفكار أتت إليه من الفلسفة والدين والأدب الوافدة عليه من أمم أخرى. ولم يكن دانتي نفسه على معرفة وثيقة بمفكري اليونان واللاتينيين وحسب، بل وبطرائق التفكير عند ابن رشد وابن سينا والغزالي الذين يظهرون في رائعته.

نستطيع من الملاحظات السابقة أن نستنتج أن أدب العصور الوسطى في أوروبا لم يظهر صورة متجانسة للإنسان العربي والإنسان المسلم. ففي بعض هذه الصور، تتبنى العقلية الأوروبية رأيا متميزا (مع أو ضد) حيال شخصيات عربية معينة بينما تبنت في حالات أخرى موقفا غاية في التنوع. وهذه النظرات المتنوعة نبعت من الاهتمامات والأغراب الخاصة بأفراد الكتاب وفي أغلب الأحيان. تلقى الشخصيات الإسلامية البارزة إما قبول كاملا أو انكسارا متطرفا. لقد أضحى الكتاب الغربيون منشغلين بعنيف الجدل ضد الإسلام يهدئ من المبادئ المسيحية اللاهوتية المتشددة، وقد جعلوا من محمد الهدف الرئيسي لهجومهم. وبذا يمكننا اعتبار التهجم على محمد ﷺ بلورة لمقت الغرب للعرب في أبشع صورة. فالتصوير الشهير الذي رسمه دانتي للنبي ﷺ يعد علامة مألوفة وبارزة على التعصب الأعمى والكراهية الكنسية.

وفي المقابل ما عُومل الرسول ﷺ من رفض وإنكار نجد ذلك التكريم لقادة المسلمين ومتكلميهم وفلاسفتهم. ومن الممكن أن نستخلص من كل ما ذكر أن أدب العصور الوسطى يعكس موقف المجتمع الغربي ذا الحدين تجاه الثقافة العربية والإسلام. ذلك أننا نلاحظ –من ناحية– ما يكنّه العالم الغربي من تقدير عميق للعمل العربي ولاسيما تقديره العميق لعدد من العلماء العرب من أمثال ابن رشد وابن سينا والفارابي. ومن ناحية أخرى نلاحظ وجود الخصومة الدينية الحادة بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي والتي خلدتها الحروب الصليبية والجهاد على التوالي. وأخيرا يجمل لنا أن نقول أن المواقف والتحيّزات التي تكونت خلال العصور الوسطى ضد الإسلام لا تزال قائمة حتى يومنا هذا...

ـ الهوامش:

1. د. رشا الصباح: الجحيم: صورة محمد/ صحيفة جامعة بيل للدراسات الإيطالية، المجلد 1–العدد2، 1977.

2. "La leggenda di Mgonnetto in Grientte" / Studi di critica, Vol.2 – Bologna / 1912. "

- Norman Daniel : Islam and the west ; the Making of an image, Edinburgh,Edinburgh University Press, 1960

3. James Kritreck : Peter the venerable and Islam, Princeton, University Press, 1964.

4. سورة المائدة، الآية /82.

5. د. رشا الصباح، مرجع سابق.

6. John Owen :

- The Skeptics of the Italian connaissance – Kennikat Press, 1909 – p 63-72.
- Norman Daniel, The Arabs and Medieval Europe, Longman, 1979.
- Thomas Arnold and Affred Guillaume, The legacy of Islam, Oxford University Press, 1931.

7. سورة الأنعام، الآية 38.

8. الكوميديا الإلهية، لدانتي الجبيري، حسن عثمان، دار المعارف بمصر، ط2، 1955.

9. Ernest H. Kantarowicz : The king two bodies : A Study in Medieval Polical theology, Princeton, Princeton, University Press, 1957

10. سعيد عبد الفتاح عاشور، "حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1986، ص 200–201.